الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

اشتغال الخطاب من المتصورات اللسانية إلى الممارسات التداولية
قراءة إبستيمية في التحولات النقدية

The Discourse Operation between Linguistics' Conceptions and the Pragmatic Practices - The Epistemical Reading in the Critical Alterations -

د. غروسي قادة
أستاذ محاضر "أ" قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس – الجزائر
gharoussi.dr@gmail.com

ملخص

لازال مصطلح الخطاب محلّ اختلاف في الحدود والمعالم وبخاصة في تداخله الإجرائي والمفاهيمي، ومع ظهور موجة النقد الجديد، ازداد الصراع النقدي حول اشتغال الخطاب داخل المطارحات والمقاربات النقدية، وذلك انطلاقا من الحقل الفيلولوجي واللساني والفلسفي والتداولي، علما أن هذه المطارحات لم تقبع وراء التحديدات اللغوية والمعجمية المباشرة، حيث إنّ اللسانيات في أثناء تراحمها مع العلوم الإنسانية أدركت ذلك الانفلات المفاهيمي والإجرائي لمصطلح الخطاب بكل توجهاته النقدية والمعرفية، مما أفضى إلى صعوبة في القبض على ماهيته والتعرّف على أنساقه، لاسيما عندما ينتقل مفهومه من اتجاه لآخر ومن منهج لآخر، ليصبح هذا الأخير -الخطاب- محلّ معاينة فكرية وحقلا مستقلا لإنتاج المعرفة. وعليه تحاول هذه الورقة البحثية أن ترصد تلك المتصورات وما ساورها من تطورات مرحلية من أجل التقريب بين القطائع المعرفية والممارسات النقدية حول رهانات الخطاب وآفاقه في ظل تراحم المناهج وتداخل العلوم.

الكلمات الدالة : اللسانيات، الملفوظ، التداوليات، اللغة، الكلام، السيميائيات، تحليل الخطاب، الفيلولوجيا، الإنتاجية.

Abstract

The term discourse remains the subject of discussion and variation in the boundaries and parameters, especially in its procedural and conceptual overlap. With the emergence of the new wave of criticism, the critic conflict over the discourse has increased in the field of criticisms and monetary approaches from the field of philology, linguistics, and philosophy and pragmatic. Note that the direct lexical, linguistics definitions.That in the course of her compassion with the human sciences realized that the conceptual and procedural failure of the term discourse in all its critical and cognitive directions, which led to the difficulty in the capture of what it is and recognize the context. Especially when His concept moves from one direction to another and from one approach to another so. That the latter – the discourse – is the subject of intellectual review and an independent field for the production of knowledge. Therefore, this paper tries to monitor these perceptions and the ongoing developments in order to bring together the knowledge and critical practices about the bets of the speech and its prospects in the light of the intersection of the critical methods and the overlap of science.

Key words: *Linguistics, Enunciation, Pragmatic, Language, Speech, Semiotics, Discourse Analysis , Philology, Productivity.*

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة

إذا كانت الفيلولوجيا أول ما تسعى إليه هو تبجيل المكتوب على المنطوق وترسيخه في مجالات البحث وأدبيات التعليم، فإن هذا لا يقلل من شأن اللسانيات التي عملت على التقريب بين الشفوي (المنطوق) الذي هو بمثابة المحضن الذي تترعرع فيه الملكة اللسانية، والمكتوب الذي يقوم بدور التمثيل والتمظهر للأثر الذي يطبعه الصوت. حيث إن أول ما يحتاج إليه الفرد في أطواره الأولى هو كيفية اكتساب المقدرة على الأداء الكلامي، ومن ثمّ يمكن لهذا الإنجاز الفعلي للكلام أن يصبح ملفوظا إذا تمّ تداوله تلفظا، لذلك كثيرا ما يرتبط التلفظ بالفرد الممارس لعملية الكلام.

والتلفظ هو حركة أو حدث «يموقع الذات داخل خطابها فتدرس هذا الأخير في علاقة مع منتجه(المخاطب)[1] ». حيث تتكون الوضعية التلفظية من مجموع الوسائط التي تسمح بالتواصل في إطار الزمان والمكان الحاصل بين المتكلم والمخاطب [2] ، ومن هذا التحديد سنعالج مفهوم التلفظ انطلاقا من المعالم التي أرساها "أندري مارتيني" حين أولى عناية قصوى للتلفظ محاولا بذلك إلى الحدّ من اللبس حول المفارقة الاصطلاحية بين ثنائية اللسان والكلام في الفكر "السوسيري".

1ـ اللسان والكلام وحتمية التفاضل

أشار "أندري مارتيني" في أكثر من مناسبة إلى ثنائية اللسان والكلام وما أثارته من لبس في المفاهيم اللسانية والإجرائية، إذ نلفيه لا يقيم مفارقة بينهما على أساس أنّ«التمييز بين اللسان والكلام قد يؤدي إلى الاعتقاد أن نسق اللسان ونسق الكلام مستقلاّن عن بعضهما البعض...وعليه ينبغي أن نسلّم بأنّ الكلام يحدّد نسق اللسان كما لا يمكن التوصل إلى معرفة اللسان دون دراسة الكلام » [3]، وفي هذا الطرح إعادة نظر لما روّجت له لسانيات "دوسوسير" حين ميّزت بين اللسان والكلام على اعتبار أن الكلام مرادف لمصطلح الخطاب وبالتالي التعارض مع نظام اللسان.

وإذا اعتبرنا أن اللسان مجرد نتاج لملكة الكلام وأحد مظاهره، فإن الكلام –وإن بدا لنا أساسيا-فإنه يتّسم بالتصرف الفردي للنظام الاجتماعي للغة بشكل عام، مما يجعله دائم التحول والتغير ودائم التعدد والتنوع، وعليه فإن حفيظة اللسانيات لم تر فيه -الكلام-حدّة الموضوع والدراسة، وذلك لافتقاره لعناصر الاتساق والانسجام ومبدأ الكلية، ولذا تعاملت اللسانيات مع موضوعها تعاملا تزامنيا وذلك بدراسة اللسان في ذاته ولذاته. ولعل هذه النظرة المحايثة جعلت من اللسانيات في أثناء مقارباتها تقترب من اللسان لأجل تحديد مكوّناتها الداخلية وبالتالي شق الطريق أمام أدبيات النسق الذي أصبح مطلبا شرعيا تنصر له اللسانيات البنوية وبخاصة الصورية منها.

وانطلاقا من هذه المعطيات الافتراضية لم تحظ الوقائع الكلامية -على غرار اللسان- بالاهتمام العلمي لدى "دوسوسير" ومن شايعه في الطرح، لذلك كان ارتكاز "دوسوسير" على اللسان ارتكازا شديدا، وهذا إيمانا منه أنها الموضوع الحقيقي للسانيات، وعليه فكان لمفارقته الاصطلاحية ما يبرّرها حين اعتقد أن «اللسان والكلام ليسا عندا بشيء واحد، فإنما هي بمثابة قسم معين وإن كان أساسيا، والحق يقال فهي في الآن نفسه نتاج اجتماعي لملكة الكلام ومجموعة من المواضعات يتبنّاها الكيان الاجتماعي ليمكن الأفراد من ممارسة هذه الملكة، وإذا أخذنا الكلام جملة بدا لنا متعدد الأشكال متباين المقوّمات موزعا في الآن نفسه، إلى ما هو فردي وإلى ما هو اجتماعي، أما اللغة فهي عكس ذلك.. [4]».بالنسبة للسان الذي هو مجموع الصيغ المناسبة التي يمكن أن تأخذها هذه الظاهرة عند جماعة من الأفراد في حقبة كعينة.

صحيح وإن أخذنا اللسان في جزئيته من الكلام فإن ذلك لا يعني أن الفرق بينهما لازم وبيّن، وإلاّ لما كان حديث "دوسوسير" عن لسانيات الكلام «لا يغيب في الدراسة اللسانية إلاّ مؤقتا وفقا لمتطلبات منهجية ما دام يستحضر ويخصص له حيّزا في الدراسة اللسانية. صحيح أنه ليس من صميم الدراسة اللسانية الصارمة لأن دراسته لا تقوم إلاّ بتدخل عدّة علوم، أي عدّة مناهج نختلف من حيث الطبيعة والجوهر مع المنهج اللساني المقترح، لهذا السبب أكّد دو سوسير على ضرورة التمييز بين هذين النوعين من الدراسة [5]»، ويتضح من هذا أن الكلام يتحقق في صور مختلفة لا حصر لها، وبالتالي يتعذر دراسة هذه الصور في الواقع. ومنه من الوهم أن يسعى الدارس إلى الجمع بين دراسة اللسان والكلام منهجيا تحت باب واحد ومن وجهة نظر واحدة. لا يمكن أن نسلك طريقتين مختلفتين، بل ينبغي اتباعهما بطريقة منفصلة [6] .

ومن هذا المنطلق إن الإقرار بوجود لسانيات الكلام إنما هو إعادة الاعتبار لعملية التخاطب (التواصل)، إذ لم يعد الكلام مجرد عنصرا ثانويا في البعد التواصلي، بل أصبح منوالا أساسيا داخل آليات تحليل الخطاب، ولذا فاللغة لا يمكن معالجتها إلا في تمظهرها الكلامي المحقق، ذلك أن «التلفظ من الناحية المبدئية مجموعة من الظواهر المشاهدة عندما نبدأ في الحديث، وضمن فعل تواصلي معيّن، فينبغي أن يكون للفرد ملكة لغوية يقوم بتسخيرها انطلاقا من تداولاته وإلاّ بقيت تلك الملكة في مواطن اللاّملفوظ [7]» وبهذا يتوجب الحديث عن لسانيات التلفظ أو (الحديث) وذلك من خلال الربط بين فعل التلفظ ونتاجه.

إذا كان التلفظ على مستوى التحليل اللساني هو كيفية تسخير اللغة بواسطة الفعل الفردي للاستعمال /التداولي، فإن منظور تحليل الخطاب يختلف، إذ «لا يجب تصور التلفظ كامتلاك الفرد لنظام اللغة، فالفرد (الذات) لا يرقى للتلفظ إلاّ من خلال القيود المختلفة لأنواع الخطابات [8]»، وبهذه الكيفية تغدو اللغة أنموذجا جمعيا مركبا بعيد عن تصرف الأفراد. لهذا كانت نظرة "دوسوسير" للظاهرة اللغوية أحادية الجانب، وذلك بفصل اللغة عن متلفظها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2ـ من مركزية التلفظ إلى ساكرونية الخطاب

يتجاوز "بنفنيست" نظرة "دوسوسير" حيال الفصل بين اللسان والتلفظ على أساس أنه ثمة فرق عميق بين اللسان بوصفه نسقا من العلامات، والتلفظ كممارسة يضطلع عليها ويمتلكها الفرد، فتتحوّل إلى لحظة (إنيّة) من الخطاب[9] ، وعلى هذا النمط يحدد بنفنيست الخطاب (الملفوظ) على أنه نسق دال داخل منظومة اللغة.

إنّ رهان "بنفنيست" يقوم على مبدأ مركزية التلفظ، أي الفعل الذاتي في اشتغال اللسان وصلته بالخطاب، فهو يرى أن«كلّ تلفظ يفترض متكلما ومستمعا، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما... [10]». يمثل هذا المفهوم الصوري لعملية التلفظ الأنموذج السيميائي في بنيته الشكلية والوظيفية، حيث إن العلاقة بين الباث والمتلقي تحدده شراكة السنن داخل عملية التلفظ، أي الجمع بين الشكل الفيزيائي والنفسي لأجل إنتاج ملفوظ ما ضمن نظرية التواصل.

تحتكم اللغة من منظور "إميل بنفنيست" لآليات التلفظ وقوانينه، وذلك بانتقال اللسان من مجال الكلام إلى مجال الخطاب، حيث إن العملية التلفظية تستدعي الشراكة التواصلية التي تفترضها جملة من الاستعمالات والكفاءات لتحديد مسار الأفعال الكلامية،«إذ إن اللغة دون عملية تلفظ ما هي إلاّ كفاية لسانية، وبعد استعمالها تصبح خطابا يبثّه المخاطب عن طريق التلفظ[11] »؛ وبهذه النظرة يتخذ شكل التلفظ اتجاها تداوليا إذ يصبح للذات المتكلمة دور دينامي في تفعيل اللغة في ذاتها ولذاتها على صعيد الملفوظات، وبالتالي إثارة الظروف والمؤثرات الخارجية التي تحدد و«تغيير السلوك الإنساني من خلال الموافق[12] »، كأن يخضع الفرد للسلوك الجمعي وللأخلاق والمعطيات الثقافية التي تحدد مرجعية الخطاب.

ومن خلال هذا المنظور الوصفي يبدو أن للذات المتكلمة دورا رئيسا داخل عملية التلفظ، ذلك أن الكلام عموما مشروط بالإدراك والإرادة الواعية للإنسان، أي التحيين اللساني لفكره، وكذا تحديد موقعه بوصفه متكلما من خلال سنن واصف خاص، ذلك أنّ مشروطية فعل التكلم/التلفظ، تحتكم للاستخدام الخاص للغة الكلام عموما، وهذا من أجل التفريق بين المتكلّم وواضع اللغة، ذلك أن إضافة الكلام إلى متكلمه (قائله) ليست إضافة له، من حيث هو وضع لغة(معجمية) ولكن من حيث هو كلام يراعي فيه المتكلّم النظم والتركيب (الخاص) وهذا يقتضي توخّي المعاني النحوية في معاني الكلام بوصفه الرحم الذي تتخلق فيه اللغة وفق كفايات لسانية.

وعلى هذا المنوال قد أثار "بنفنيست" الحديث عن الذاتية La subjectivité، التي أقصتها لسانيات "دوسوسير" داخل عملية التلفظ، حيث عملت جهود "بنفنيست" على تليين بعض المفاهيم والمقولات اللسانية الصارمة وذلك بوضع مكانة للذات التي غيّبتها اللسانيت البنوية ردحا من الزمن، وفتح المجال أمام لسانيات الخطاب.

إنّ لمثل هذا الطرح حضورا في المتصورات السيميائية النقدية لدى "جوليا كريستيفا"، وذلك منذ أن شكّكت في طبيعة النسق المحايث، وهذا بفتح أفق جديد قائم على مبدأ التعدد والاختلاف. لهذا ظلّت "جوليا كريستيفا" تبحث عن ما أسمته بالإنتاجية النصية La productivité Textuelle، الذي يعدّ نقلة مفاهيمية في ردّ الاعتبار للذاتية La subjectivité التي غيّبتها الماركسية في أثناء الممارسة الاجتماعية.

تنظر "جوليا كريستيفا" للنص/الخطاب في اشتغاله على أنه ممارسة دالّة يدمج الذات كشيء موزّع توزيعا سيميائيا، ومفروض في الأماكن المناسبة بطريقة رمزية[13] . وعليه تغدو الذات المتكلمة في نظر كريستيفا «هي نفسها نص، وهي تنقش ضمن العملية الدالة لا ككيان مفروض بل كسيمات سيميائية ورمزية ومعبّرة، وهي سيمات للعملية الدّالة»[14] ولعل هذه العملية التدليلية La signifiance تجعل من النص فضاءً يتّسع لأن يكون موضوعا للخطاب بوصفه ممارسة سيميائية دالة أو جهاز عبر لساني يعيد«توزيع نظام اللغة في تعالقه بالكلام التواصلي الذي يهدف إلى الإعلام المباشر مع مختلف الملفوظات الداخلية والتزامنية».[15] وعلى ضوء هذا التحديد يعدّ النص ممارسة إنتاجيةً ويعني ذلك:

1- أن النص في علاقته مع اللغة التي يتموضع فيها إعادة توزيع (تفكيك/بناء)، إذ تسمح هذه الطريقة التقاطع عن طريق مقولات منطقية لا مقولات لسانية محضة.

2- يمثل النص مركزا لتبادل النصوص (التناص) في فضاء نصّي متعدد الملفوظات المأخوذة من نصوص أخرى.

ومن خلال هذا التحديد ترى "ج.كريستيفا" أن النص وحدة إيديولوجية [16] Idéologème ، والتي تتمثل في«تلك الوظيفة للتداخل النصي التي يمكننا قراءتها ماديا على مختلف مستويات بناء كل نص تمتدّ على طول مساره مانحة إياه معطياته التاريخية والاجتماعية».[17] وبناء على هذا التصور تسعى "كريستيفا" إلى تجاوز مفهوم البنية التي شكّلت عقيدة وثوقية لدى البنيويين ردحا من الزمن، وهذا بمحاولتها لتغيير النظرة المركزية لفكرة النسق، فقد أبدت شكوكها حول النص المغلق وما أثاره من صدامات نقدية ومعرفية.

وفي معرض الحديث عن الممارسة الاجتماعية تهتدي "ج.كريستيفا" أن النص ليس منتوجا فحسب، بل يمثل مسرحا للإنتاجية، حيث يتمّ التفاعل بين الذات المتكلمة والذات المستهلكة، على أساس أن الذات المتكلمة هي إحالة إلى«العنصر الغائب في تركيب ما يُتكلّم وما يقال وما يلفظ».[18]

لا يتحدّد الملفوظ إذا ما تمّ تداوله تلفظا أو كتابة، وذلك بإخراجه من حيّز الوجود بالقوّة إلى حيّز الوجود بالفعل، غير أنه في الكثير من الأحيان يتشاكل الملفوظ بالخطاب على أساس أن الملفوظ يشكّل ركنا من أركان الخطاب، الذي بدوره لا يخرج

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عن مواصفات الكلام -حسب تعبير دوسوسير-، كونه يتوافر على عناصر فيزيائية وفيزيولوجية يمكن تحديدها عن طريق عملية التلفظ (التصويت)؛ ومن ثمّ فإن الملفوظ أو الخطاب لا يمكن حصره في أصغر وحدة جملية أو سلسلة كلامية لها حجما أو زمنا معنيين. لأن الخطاب قد يطول أو يقصر كما قد يفيض أو يختزل، فمثلا كلمة "قف" خطاب مختزل في مظهرين صوتيين، وهما الفاء والقاف، حيث يمكن توليف منها مجموعة من الملفوظات في شكل توليدي أو توزيعي:

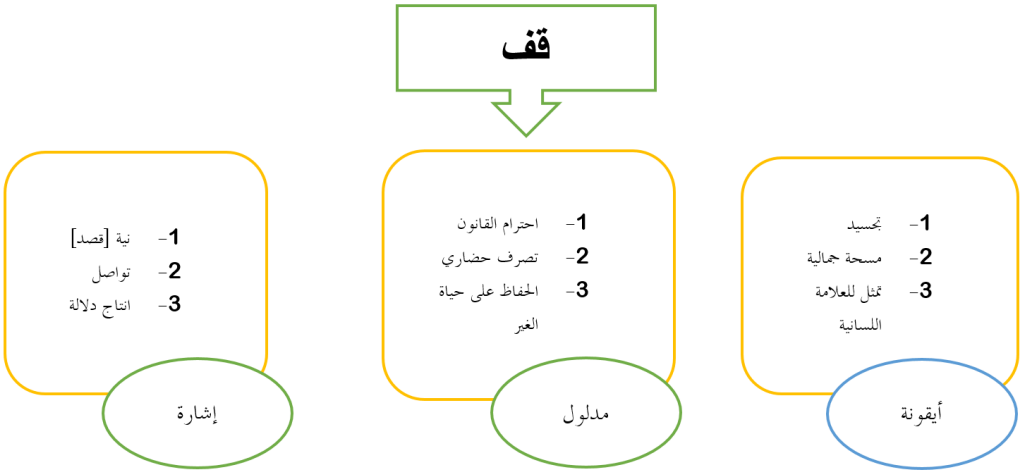

ومن هذا المنطلق فإن الملفوظ وحدة تواصلية جاهزة، يتساوى مع كلمة أو متوالية من الجمل، أو متوالية نصيّة، ولذا نلفي أن بعض اللسانيين لم يستقرّوا في أثناء مدارستهم للملفوظ على تحديد واحد، بل هناك من شاكل بينه وبين التلفظ وهذا ما انتهت إليه اللسانيات التوزيعية حين حصرت الملفوظ في إطار الجملة، وأن الملفوظ متعلق بمجموعة من المتواليات الجملية التي تألف نصا أو خطابا. وإذا تأملنا مليا في قاموس اللسانيات "لجون دوبوا" فإننا لا نلفي فروقا جوهرية بين النص والخطاب، فالنص هو «مجموع التلفظات اللسانية الخاضعة للتحليل»[19]، بينما الخطاب هو «كلّ تلفّظ أعلى من الجملة، تراعى فيها قواعد التسلسل»[20]، إذن فإن كل من النص والخطاب يشتركان في عملية التلفظ.

وفضلا عن طبيعة (الخطاب/الملفوظ)، فإن الخطاب يشكل وحدة تواصلية مرتبطة بظروف إنتاج معينة، أي كل ما هو من قبيل نوع خطابي معيّن، نقاش متلفز، مقالة صحفية، رواية؛ ومن حيث هذه الوجهة يحيل الملفوظ والخطاب على وجهتي نظر مختلفتين، فالنظر إلى النص من هو بنية لغوية تركيبية يجعل منع ملفوظا، أما الدراسة اللغوية لظروف إنتاج هذا النص فتجعل منه خطابا[21].

3ـ تداولية الخطاب ومفهوم التغاير

لا يختلف "دومنيك مانغنو" في تحديده للخطاب عن "دو سوسير"، بأنه صنوان للكلام، كون أن الجملة لا تنتمي إلى حيّز اللسان، وإنّما تنتمي إلى الكلام بوصفها وحدة خطابية. غير أن ما يمكن أن نلفيه لدى "مانغنو" هو تعميقه العلاقة بين الخطاب والظروف التي أنتجته، وذلك بالعودة إلى أدبيات السياق، وبالتالي فتح العوامل الاجتماعية الإيديولوجية التي ساعدت على إنتاج ملفوظ ما؛ في حين لم يكن تحليل الخطاب في تلك الحقبة -الستينيات- تأخذ بالمبرّرات الخارجية للإمساك بدلالة الخطاب، ويعزى ذلك كلّه إلى أنّ مقولة "الداخل" باتت من مسلمات النقد البنيوي التي لا يمكن المساس بها أو نقدها آنذاك.

ينطلق "دومنيك مانغنو" في اشتغاله على الخطاب من خلفية تداولية التي تراعي خصوصيات التلفظ ومصاحبات الملفوظ التي يؤشّر عليها الملفوظ نفسه، لذلك أن المعنى لا يمكن أن يدرك إلاّ بفضل وجود التعاون الذي يترجم فعّالية متلق نموذجي يأخذ بعين الاعتبار خصوصيات التلفظ والملفوظ حين يتعلّق الأمر بالملفوظ[22]، من حيث هو وحدة كلامية تامة الإنجاز والدلالة.

وفي مقابل هيمنة الفكر البنيوي على تحليل الخطاب واتّجاهاته، أين كانت الساحة النقدية تشهد تدفقا لا حصر له من المقاربات النظرية والتطبيقية في قضايا الخطاب، بدأت بعض المقاربات النقدية تتجاوز وتشكك من صرامة التحليل المحايث، وذلك بفتح أفق جديد يتيح سبيل التعدد والانفتاح، وهذا ما نلفيه لدى مانغنو حين يقدّم مفهوم التغاير Hétérogénéité داخل الخطاب بوصفه «عملية تعمل على إقامة علاقة أساسية بين داخل النص وخارجه[23]»، وفي هذا عودة إلى أدبيات السياق وحيثياته.

يقسّم مانغنو التغاير إلى قسمين، تغاير ظاهر يمكن التعرف عليه من خلال المصادر الخطابية المختلفة، بينما التغاير التكويني يمكن تجليته من خلال الممارسة الخطابية؛ كما يلجأ مانغنو للحديث عن آليات تحليل الخطاب، إذ يشير أن مجال تحليل الخطاب يأخذ ثلاثة أبعاد أو اتجاهات أساسية:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ـ **الاتجاه الفيلولوجي**: الذي يستند على تحليل السياق، وذلك لردّ قدرات المحلل إلى الاستيعاب والفهم، وربطها بالشبكات الدلالية في عملية التحليل، وذلك تحسبا للجدول الزمني وأنموذج الخطاب، وموفق القول.

ـ **الاتجاه التوليدي النصي**: ويعتمد فيه على مدارسة "المفردة" عبر جهاز توليد النص، وذلك من خلال ربط المفردات بعضها ببعض ضمن نص الواحد والجملة الواحدة.

ـ **الاتجاه التفكيكي**: وفيه يفكّك الخطاب ويعاد بناؤه في شبكات من العلاقات بين المفردات.[24]

يرى "مانغونو" أن هذه الاتجاهات الأساسية في تحليل الخطاب قد دفعت ببعض التيارات المعاصرة -كالسيميائيات- إلى بلورة بعض المفاهيم النظرية والتطبيقية، حيث إنّ التشكّل الخطابي يتحدد بوجه عام عن طريق الذاكرة الجماعية التي تنخرط في التاريخ بوصفها جزءا لا يتجزأ منه[25]، فالخطاب ذو طبيعة دينامية تتعدد فيه التفاعلات الخطابية، ويأتي الخطاب هنا ليحتوي الملفوظ ويضعه في دائرة أوسع، فلا يعزله عن شروط تلفّظه وتداوله.

على الرغم من استبعاد "رولان بارث" إمكانية تقديم نظرية لسانية للخطاب كونها لا زالت عصية أو بعيدة المنال، إلاّ إننا نلفيه يقدّم متصورا لسانيا لتحليل الخطاب السردي، وذلك انطلاقا من ثلاثة مستويات.(مستوى الوظائف، مستوى الأحداث، مستوى السرد)؛ ويؤكد بارث على أهمية الربط بين هذه المستويات فيما بينها، إذ لا معنى لوظيفة إلاّ بقدر ما تحتل مركزا في العمل العام، وهذا العمل يتخذ معناه النهائي من كونه عملا سرديا لخطاب له نظامه الرمزي الخاص[26]. فالخطاب-إذن-من منظوره، «إنجاز فردي يتشكل من مجموعة الوحدات الخطابية تربطها ببعضها علاقات تحقق للخطاب انسجامه.. [27]»، إذ يصبح الخطاب نقطة اشتغال تمارس فيها الذات إنتاج المعنى، أي بمعنى أن الممارسات الدلالية داخل الخطاب تعيد للكلام طاقته الفاعلة، وهذا ما يحيل للاعتراف بأن الملفوظ وشروط تلقيه لا ينفكان من إرغامات الإيديولوجية وسلطة الذات.

4ـ تحليل الخطاب واستراتجية التوسع

لا تنفك إسهامات "فرانسوا راستي" هي الأخرى في أثناء مقاربته للخطاب ومستوياته عن تلك التوجهات التي أتت بها اللسانيات الأمريكية، كما هو الشأن لدى "بلومفيلد" الذي حصر الخطاب عند حدود الجملة، بوصفها الوحدة اللسانية الكبرى، غير أنّ استراتيجية "ف.راستي" عملت على تجاوز حدود الجملة ومردّ ذلك أن الجملة في تصوّره «وحدة لسانية مستقلّة، لا يمكنها أن تنحصر داخل وحدة لسانية أكبر[28]»، وبهذا التصوّر يرسي "راستي" استراتجيته للخطاب على ثلاثة محاور:

-اختزال الخطاب على أن يكون موضوع اللسانيات.

- إقصاء الخطاب من دائرة اللسانيات وذلك لعدم ارتباطه باللسان بل بالكلام.

- يجب وضع داخل اللسانيات علم للخطاب، وبالتالي نكون أمام مجالين مختلفين (لسانيات الجملة ولسانيات الخطاب)، إذ يمكن أن تتقاطعا طريقتهما في كل لحظة.[29]

ومن خلال هذه الاستراتيجيات الثلاثة لا يقيم "ف.راستي" مفارقة بين البنيات الخطابية والبنيات اللسانية، إذ ينطلق من العناصر التي تنظم عناصر المستوى اللساني من أخل الوصول إلى البنيات الخطابية، وعلى هذا الأساس فقد حصر "راستي" دراسته للتشاكلات داخل البنيات الخطابية.

وفي ظل هذه المطارحات اللسانية لمفهومي الخطاب والملفوظ يبدو أن السيميائيات –هي الأخرى-لم تغفل من جانبها المتصورات النقدية للملفوظ الذي بات يشكلّ إحدى المقولات السيميائية السردية، وهذا الطرح تبنته مدرسة باريس وبخاصة لدى "غريماس" الذي بدوره يحدد شكلين من الملفوظات:

- ملفوظات الحالة، وهي بدورها تتفرع إلى صنفين ملفوظات الوصل (SvO)، وملفوظات الفصل (S^O).

- ملفوظات الفعل، وهي تحويل لملفوظي الفصل والوصل، ودورهما الانتقال من حالة لحالة، وفي الحالة التي يحدد فيها ملفوظ الفعل أو ملفوظ الحالة ملفوظا آخر من ملفوظات الفعل أو ملفوظات الحالة فإن الأول يسمى بالملفوظ الكيفي والثاني يسمى بالملفوظ الوصفي[30].

يفرّق "جاك فونتاني" بين النص والخطاب على أساس أن النص ملفوظ لعناصر ملموسة تسمح لنا بتفسير دلالة الخطاب [31]. بينما الخطاب إيحاء دلالي، أو بمعنى هو الفعل لتلفظ خاص وتحقق ملموس في الآن نفسه[32]. وعلى هذا المنوال لم تحصر السيميائيات موضوعها داخل العلاقات التركيبية والدلالية فحسب، بل ألفيناها تتعدّى إلى التطبيقات الدّالة، ومن ثم يحصر فونتاني هذه التطبيقات في منظورين:

- إذا أخذنا النص على مستوى الملفوظ، فإنّه يتألّف من عناصر دالة، بها تتحدد قواعد بناء التعبير، وهذا منظور النص.

بينما الخطاب هو نتاج تمفصلات دلالية لمجموع التلفظات المركبة في تحققها الملموس عبر تطبيقات دالة، وهي التي تحدد قواعد بناء المحتوى، وهذا هو منظور الخطاب[33].

ومن خلال هذين المنظورين يأخذ النص في مستواه الملفوظي على عاتقه منح الخطاب مهمة البحث عن الدلالة عبر وسائل تعاقدية وأخرى إبداعية، بينما الخطاب يؤسس على إعطاء الملفوظ دلالة قصدية منسجمة.

إن موضوع الخطاب لم يكن من صميم الإشكالية اللسانية إلاّ بعد بروز النظرية التوزيعية وارتباطها في بداية الأمر بالنزعة السلوكية التي كانت رائجة في الولايات المتحدة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأمريكية على يد "ليونارد بلومفيلد" وتلميذه "زليغ هاريس"، حيث في بداية الأمر تمركزت نظرة "بلومفيلد" على الجملة بوصفها وحدة كبرى لا يمكن أن تخرج عن إطار المسند والمسند إليه. ولكن هذه النظرة لم تغط ذلك الفراغ الكبير الذي كان مطروحا على الصعيد المدارس اللسانية، غير أن ما يمكن رصده في بعض مقاربات أندري مارتني حين تحدث عن التحليل التركيبي للمدونة على أنه مجموع علاقات الترابط وذلك انطلاقا من الوظيفة التواصلية للغة [34].

عملت المدرسة التوزيعية في أثناء مقارباتها للخطاب على تحديد مفهوم التكافؤ كأولية إجرائية لدراسة قواعد الجمل وتحليلها بوصفها مؤسسة لشبكات من التكافؤ بين متتاليات من الجمل، وعليه إنّ مبدأ التوزيع الذي وضعه "هاريس" يتّضح في العلاقات التي تؤلّف بين الجمل وتحديد التكافؤات الموجودة بين الوحدات التي تأخذ التوزيع والتجاور.

على الرغم من الإسهامات العميقة داخل النظرية التوزيعية «تبدو ناقصة، بإغفالها الجانب الدلالي إلاّ أنها كانت تكتفي مرحليا بتجارب مفيدة أدّت إلى الترميم الذاتي لتلك النظرية وتحسينها وإلى ولادة نظرية جديدة أكثر اكتمالا..[35]». ويكمن هذا الترميم في تلك المحاولات الجادّة التي أدلى بها نوام "تشومسكي"، حيث سعت هذه المحاولات إلى استكشاف القدرات الكامنة وراء الحدث الكلامي بشكل عام والملفوظ بشكل خاص، وذلك بتقديم تفسير دلالي وتأويلي.

ولهذا فالخطاب يشاكل- من منظور المدرسة التوليدية والتحويلية – ثنائية الكفاية والأداء اللغويين، وذلك من خلال معرفة المتكلّم المستمع المثالي للغته، بحيث تتمظهر هذه المعرفة في تلك الملكة الفطرية التي يستخدمها المتكلّم لإنتاج عدد ممكن ولا حصر له من الجمل، أو بتعبير همبولت هي المقدرة اللغوية الإبداعية الكامنة في عقل كلّ متكلّم، بوصفها خيصصة جوهرية في عقل الإنسان...ومن ثمّ فالمتكلّمون يمكنهم أن يستخدموا إمكانيات اللغة المحدودة المتاحة لهم استخداما غير محدود في أيّ وقت[36]. ثمّ إن الصلة بين الكفاءة والأداء كصلة التلفظ بالملفوظ، أو الحديث عن نشاط الفاعل وهو يتكلّم لتحديد العلاقة بين الملفوظ والتلفظ على أساس الترابط القائم بين الخطاب والفاعل المنتج لهذا الخطاب[37].

خاتمة

بطبيعة الحال وإن بدى لنا اللسان في تمظهراته ما هو إلاّ تجلّ من العلامات المتعارضة تسكن منطقة الكلام، وذلك من منطلق مبدأ الاختزال التي تستدعيها التغيرات والاستعمالات الحرّة للمتكلمين. فإن مقولات الإقصاء التي مارستها اللسانيات قد أدّت إلى تهميش ثلاثة مقولات أساسية وهي [الذات المتكلمة، السياق، الاستعمال] وهذا مما فسح المجال لمقولة المحايثة أن تفرض من سلطتها وهيمنتها الإجرائية، وهذا ما كانت تنشده اللسانيات في منطلقاتها الأولية مركزة بذلك على التحليل التزامني "الساكروني" للملفوظ.

كما أنّ اللسانيات وإن لا زالت مستمسكة بطروحاتها الدقيقة الصارمة، فإن اللسانيات التلفظية باتت مطالبة اليوم بتليين مقارباتها حيال الذات التي غيّبتها الممارسات النسقية، وذلك بردِّ الاعتبار للذات داخل الشراكة التواصلية التي تفرضها الاستعمالات والكفاءات لتحديد الأفعال الكلامية. وهذا الذي ألفيناه لدى "بنفنيست"و"كرستيفا" و"بارث" و"مانجنو" وذلك بـ:

1- استدعاء الشراكة التلفظية من خلال شبكة من السياقات والاستعمالات التداولية.

2- إعادة الاعتبار للذات التي غيبتها الممارسات الماركسية.

3- اشتغال على خلفيات الخطاب التي تراعي خصوصية التلفظ وبالتالي الطبيعة الدينامية للملفوظ.

4- إعادة للخطاب طاقته الفاعلة وهذا من خلال تحيين الملفوظ وشروط تلقيه بكل أبعاده الإيديولوجية والسلطوية.

الهوامش

1- ذهبية حمّو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2005،ص.72.

2- ينظر،ماري آن بافو و جورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى ، من النحو المقارن إلى الذرائعية ، ترجمة: محمد الراضي، مركز دراسات الوحدة العربية. الطبعة الأولى2012.ص.291.

3- André Martinet. Elements de linguistique générale. Armand Colin. Paris. tome 1. 1970. p.25.

4- فرديناند دوسوسير، دروس في الألسنية العامة، ترجمة، صالح قرمادي، محمد عجينة، محمد شاوش،ص.29.

5- حنون مبارك، مدخل للسانيات دوسوسير ،دار توبقال، المغرب،طبعة1، السنة1987.ص.36.

6- ينظر، مصطفى غلفان، اللغة واللسان والعلامة عند سوسير، في ضوء المصادر والأصول، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى، 2017،ص.153.

7- ذهبية حمّو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2005، ص.84.

8- دومينيك ما نغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة، محمد يحياتن، منشورات الاختلاف الجزائر الدار العربية للعلوم ناشرون،بيروت، الطبعة الأولى، 2008.صص.52-53.

9- Emile Benveniste. Problèmes de linguistique générale. Tome1. pp.254-255.

10 - Ibid.. p.241.

11- Emile Benveniste. Problèmes de linguistique générale. Tome1. pp.81-82.

12- أوستين، أفعال الكلام، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991، ص.06.

13- ج.هيو سيلفرمان، نصيات بين الهرمونطيقا والتفكيكية، ترجمة، حسن ناظم وعلى حاكم صالح، المركز الثقافي العربي،2000،ص.261.

14- المرجع نفسه،ص. 263.

15 -Julia Kristeva. Sémioetiké. Recherches pour une sémanalyse. ed. Seuil. Paris 1969. . p.52.

16- الإيديولوجيم: مصطلح استقته كريستيفا من ميدفيديف، وهو من منظور فيكتور إرليخ جزء من الممارسة بوصفه يعكس واقعا اجتماعيا الذي يتمظهر في مجموع من التلفظات وطرق اللبس والعلاقات التنظيمية بين البشر، وكل إيديولوجيم هو جزء من الواقع المادي الاجتماعي.

17- Julia Kristeva. Sémioetiké. Recherches pour une sémanalyse. p.52.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

7- روبرت هنري روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ترجمة، أحمد عوض، عالم المعرفة، العدد، 227، الكويت.

8- رولان بارث، نظرية النص، ترجمة، محمد خير البقاعي، العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، عدد،5، 1989.

9- عبد اللطيف محفوظ، آليات إنتاج النص الروائي، نحو تصوّر سيميائي، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، 2008.

10- ماري آن بافو و جورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى ، من النحو المقارن إلى الذرائعية ، ترجمة: محمد الراضي، مركز دراسات الوحدة العربية. الطبعة الأولى2012.

11- مصطفى غلفان، اللغة واللسان والعلامة عند سوسير، في ضوء المصادر والأصول، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى، 2017.

12- ميشال أريغي، جان كلود جيرو، لوي بانييه، جوزيف كورتيس، السيميائية أصولها وقواعدها، ترجمة، رشيد بن مالك، مراجعة وتقديم، عزّ الدين مناصرة، منشورات الاختلاف.

المراجع بالغة الفرنسية

1- A.J.Griemas.et J.Courtés. Sémiotique Dictionnaire raisonné sur la théorie du langage. ed.Hachette.Paris.1979.

2- André Martinet. Éléments de linguistique générale. Armand Colin. Paris. tome 1. 1970.

3- Domenic Maigueneau. Nouvelles tendances en analyse du discours.

4- Emile Benveniste. Problèmes de linguistique générale. Tome1.1991.

5- François Rastier. Systématique des isotopies. in.A.J.Griemas. Essais de sémiotique poétique. ed. Larousse. 1972.

6- Jaques Fontanille. Sémiotique et littérature. Essais méthodes. éd.. PUF. 1999.

7- Jean Dubois. Dictionnaire de linguistique. Édition. Larousse. Paris. 1973.

8- Julia Kristeva. Sémioetiké. Recherches pour une sémanalyse. ed. Seuil. Paris 1969.

9- Roland Barthes. L'aventure sémiologique. éd. du seuil. 1985.

10- T.Todorov. Symbolisme et interprétation. collection poétique. éd. du Seuil. Paris.

18- ج.هيو سيلفرمان، نصيات بين الهرمونطيقا والتفكيكية، ترجمة، حسن ناظم وعلى حاكم صالح، المركز الثقافي العربي،2000،ص.263.

19- Jean Dubois. Dictionnaire de linguistique. Édition. Larousse. Paris. 1973. p.486.

20-Ibid. p.156.

21- ينظر، دومينيك ما نغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة، محمد يحياتن، منشورات الاختلاف،الجزائر الدار العربية للعلوم ناشرون،بيروت، الطبعة الأولى، 2008،صص.39-38.

22- عبد اللطيف محفوظ، آليات إنتاج النص الروائي، نحو تصوّر سيميائي، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، 2008،ص.150.

23-Domenic Maigueneau. Nouvelles tendances en analyse du discours. p.53.

24- Domenic Maigueneau. Nouvelles tendances en analyse du discours. pp.95-96.

25- Ibid. p.84.

26-Voir. Roland Barthes. L'aventure sémiologique. éd. du seuil. 1985. pp.174-175.

27- رولان بارث، نظرية النص، ترجمة، محمد خير البقاعي، العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، عدد،5، 1989، ص.93.

28- François Rastier. Systématique des isotopies. in.A.J.Griemas. Essais de sémiotique poétique. ed. Larousse. 1972. p.81.

29 - Ibid. p.81.

30- A.J.Griemas.et J.Courtés. Sémiotique Dictionnaire raisonné sur la théorie du langage. ed.Hachette.Paris.1979.pp.124-125.

31- T.Todorov. Symbolisme et interprétation. collection poétique. éd. du Seuil. Paris.1979.p.09.

32 - Jaques Fontanille. Sémiotique et littérature. Essais méthodes. éd.. PUF. 1999. p.16.

33-Ibid. p.17.

34- André Martinet. Éléments de linguistique générale. Armand Colin. Paris. tome 1. 1970. p.109.

35- أحمد حساني، البنية التركيبية في رحاب اللسانيات التوليدية والتحويلية، مجلة تجليات الحداثة، معهد الآداب، اللغات والفنون، جامعة وهران، عدد، الأول، 1992، ص.67.

36- روبرت هنري روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ترجمة، أحمد عوض، عالم المعرفة، العدد، 227، الكويت، ص.285.

37- ميشال أريغي، جان كلود جيرو، لوي بانييه، جوزيف كورتيس، السيميائية أصولها وقواعدها، ترجمة، رشيد بن مالك، مراجعة وتقديم، عزّ الدين مناصرة، منشورات الاختلاف، ص124.

المراجع

1- أحمد حساني، البنية التركيبية في رحاب اللسانيات التوليدية والتحويلية، مجلة تجليات الحداثة، معهد الآداب، اللغات والفنون، جامعة وهران، عدد، الأول، 1992

2- أوستين، أفعال الكلام، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991،

3- ج.هيو سيلفرمان، نصيات بين الهرمونطيقا والتفكيكية، ترجمة، حسن ناظم وعلى حاكم صالح، المركز الثقافي العربي،2000.

4- حنون مبارك، مدخل للسانيات دوسوسير ،دار توبقال، المغرب،طبعة1، السنة1987.

5- دومينيك ما نغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة، محمد يحياتن، منشورات الاختلاف الجزائر الدار العربية للعلوم ناشرون،بيروت، الطبعة الأولى، 2008.

6- ذهبية حمّو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2005.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com